من الآن في تعلم اللغة التركية مع لغتهم العربية ولا يمضي عشر سنوات حتى تشيع اللغة التركية بين المتعلمين اكثر من شيوع اللغة الفرنسوية الآن ومن هؤلاء ينتخب تلامذة المدارس الحربية . واذا أُلصق سكان الولايات العربية فاختير ولاتهم منهم فيكونون عارفين بالعربية مع معرفتهم بالتركية . وقد يزيد ذلك اهتمام الاتراك بتعلم العربية

اما قسمة حكومة البلاد وادارتها الى قسمين فمضعف لها جداً وينتهي بقسمتها فعلاً وقد لا يتم ذلك الاَّ بعد حروب اهلية فيجب الابتعاد عنهُ حتماً . وعندي انهُ لو خيّر الاتراك بين ان يجعلوا اشغال الحكومة بالعربية وبين ان يقسموها الى قسمين ولم يكن لهم مناص من احد الامرين لاختاروا الاول على الثاني لانهُ اقل منهُ ضرراً ولو كان اكثر منهُ تعباً

باحث سوري

باب التقريظ والانتقاد

خواطر نيازي

بحث انتقادي

احمد نيازي بك الرسنه لي بطل الدستور اشهر من نار على علم وقد اقترح عليهِ ان يكتب خلاصة الاعمال التي عملها في سبيل الدستور وما يتصل بها وكان قد كتب ما جرى من الحوادث يوماً فيوماً فادمجها في كتاب سماهُ خواطر نيازي ترجمهُ الى العربية حضرة الكاتب البليغ ولي الدين بك يكن وطُبع في هذه العاصمة

بدأ نيازي خواطرهُ بمقدمة تاريخية فلسفية فبيّن الادوار التي مرّت عليها الدولة العثمانية من حين ظهورها سنة ٦١٩ هجرية الى سنة ٨٥٧ حين فتحت الاستانة ومن ذلك الحين الى سنة ٩٨٦ وقد بلغت اوج مجدها وصار ملوك الارض يخطبون ودها وعقدت المعاهدة المشهورة مع الملكة اليصابات ملكة الانكليز . قال ولما بلغت من الرفعة ومواتاة الحظ مبلغ الكمال ادّى بها فرط الغنى والاقبال الى الوقوف من سنة ٩٨٦ الى سنة ١١٨٠ اي حين ابتدأت الحروب مع الروس . والدور الاخير بين سنة ١١٨٠ و ١٣٢٤ هو دور الخمول والاضمحلال ولكن الدولة لم تلقَ فيهِ من شعبها يأساً بل وجدتهُ لما انتهبت متأهباً وملؤهُ امل في الحياة . وقد قام فيها حتى في زمن خمولها واضمحلالها سلاطين عظام مثل سليم الثالث

ومحمود الثاني وعبد الحميد الاول ورجال توابع مثل رشيد باشا ومصطفى فاضل باشا ومدحت باشا وشناسي كمال بك . ولكن الدور الرابع الذي استهل بالشهيد الاعظم سليم الثالث وختم بالشهيد الثاني مدحت باشا لم يكن خاتمهُ بقتل الشهيد الثاني سوى فجر كاذب يتبعهُ باشتداد الظلام فيهِ فاربدَّت خيلة الليل البهيم بعد ذلك حتى انَّت الامة كلها وعادت اليها قوة دافعة دفعت بها من ذلك الجور الجهنمي فكان من ذلك انقلاب ١٠ تموز الماضي . ثم ان هذا الانقلاب الذي ابتدأ منذ مئة سنة ونيف وتعطل اثنين وثلاثين عاماً لم يحدث بتدبير حكيم ولا ببأس ذي بأس بل جاء برغبة شعب بات غرض الكوارث والمصايب

والمقدمة كلها على هذا النسق التاريخي الفلسفي ومع ذلك استطاع عبد الحميد ان يخفي مواهب الوف من الضباط الذين مثل كاتبها . ان هذا لمن اعجب العجب . وتبتدئ الخواطر بخلاصة تاريخية من سيرة نيازي نفسهِ حين كان تلميذاً لم يتكمل اربع عشرة سنة من عمرهِ وذلك سنة ١٣٠٣ قال انهُ سمع من ذلك الحين ان الوطن احترق والدولة غرقت والسلطان أحيط بالخائنين فايقن انهُ لا يستطيع خدمة امتهِ الاَّ في المدارس العسكرية فدخل المكتب الرشدي (العسكري) لكن اقاربهُ حاولوا صرفهُ عن عزمهِ لان الضباط المتخرجين من المكاتب العسكرية لم يستطيعوا ارجاع مجد الجيش العثماني فزاد شغفهُ بالجندية عساهُ ان يجد فرصة للانتقام من الخونة الذين اضرُّوا بالوطن ابتغاء منافعهم الخاصة فانتقل الى المكتب الاعدادي العسكري مسوقاً بحب الوطن . قال وكان اليوزباشي اورخان افندي استاذ الفرنسوية واليوزباشي توفيق افندي استاذ التاريخ يأتيان بالمباحث المفيدة فيذكران الحمية والترقي ومحبة الوطن ويقصّان اخبار القدماء الذين استشهدوا في حب وطنهم من العثمانيين والفرنسويين . وكلما دار الكلام بيني وبين اخواني في المكتب على احوال العالم كان اسم الاديب الاعظم كمال بك موضوع حديثنا فنستغرب كيف يكون رجل مثلهُ مبغوضاً من الدولة على غزارة علمهِ وفضلهِ وشدة حميتهِ واخلاصهِ . وكنت اقول في نفسي اننا نتعلم هنا لنكون قواداً لابناء وطننا فلماذا يضطروننا ان نخفي احساساتنا الطاهرة ولا يدعوننا نقرأ المؤلفات التي تغنيها وتعليها ولماذا لا يربُّون شبان الوطن على ما يتندون بهِ من كمال كل الامم ليكونوا دواء لهذا الانحطاط

وقال انهُ حفظ كثيراً من اشعار كمال بك وغيرهِ من القدماء وهو في المدرسة المنكية الاعدادية فكانت غذاء لنفسهِ وملجأ يلجأ اليهِ اذا خاف الوقوع في اليأس ولا سيما بيت كمال بك القائل ما ترجمتهُ

لا تحسبنَّ احتقار الشعب يورثهُ هونٌ فليس يهان الدرُّ ان سقطا

ثم دخل المدرسة الحربية في الاستانة سنة ١٣١٠ فرأى انهُ اسسى في سجن اسير المصائب حيث لا يحل لاحد ان يتلفظ باسم كمال بك او غيره من الاحرار . وكان في تلك المدرسة ثلاثة من الاساتذة يحيون الآمال بدروسهم فنفوا وأُجلوا عن الوطن . ونتج من كثرة التضييق على التلامذة وما كانوا يرونهُ من دلائل الفساد ان ألّفوا جمعية سرية يقصدون بها انقاذ البلاد من المابين وخدّامهِ لكن ادارة المدرسة اكتشفت جمعيتهم وبدّدت شملهم . ولما اقفوا دروسهم واستلموا الشهادات وحُلّفوا اليمين قالوا في ضمائرهم انهم يخلصون الخدمة للحق والوطن بدل العبارات التي كرّرها عليهم من سلّمهم الشهادات . قال نيازي ولم يشذ في ذلك الاّ بعض اولاد الكبراء

ثم وصف الحرب العثمانية اليونانية وقال ان الدولة اثارتها لكي تتغلب بها على الاميال الثورية التي اخذت تتشدّ في ذلك الحين فان اركان الحرب وشبان الضباط ومعلمي المدارس والمهندسين والمحامين وبعض ذوي الحلية من المدرّسين والتلامذة واهل التجارب من الكهول كانوا يجتمعون سرًّا ويبحثون عن سبيل يؤدي الى خلاص الوطن رغمًا عن الجرائم المنتشرة من منبع يلديز المتعفن وتقارير الجواسيس . وكانت الثورات التي آثارها العرب في اليمن والارمن في الاناضول والاستانة والحروب المتسببة في كريد اقوى امارات الميل الى الاتحاد والمقاومة للاستبداد . ولكن تألّف اكثر رجال الحكومة والجندية من المسلمين دون المسيحيين وحرمان المسيحيين من مناصب الحكومة وتقوية التعصب والتفريق بين الطوائف كل ذلك لم يدع مكانًا للثقة العامة . ثم انهُ حلّ باربابِ الحيلة من الاعدام والتعذيب ما لا يوصف فاضطرّ بعض الاحرار الذين سلموا من القتل والنفي الى المهاجرة فركنت يلديز الى الحيلة لتسقط هؤلاء الاحرار وارسلت اليهم الجواسيس الخونة مبرقعين ببراقع الصداقة ومتسمين بسمة الاحرار وجادت في هذا السبيل بالمال لكي تسوء سمعة الاحرار الحقيقيين وتنزعزع امل الاصلاح من اساسهِ . وساعدها على ذلك الجرائد التي اشترتها بالمال . ثم ذكر ثورة البلغار واسهب في اسبابها ونتائجها وكيف عرف ان في سلانيك جمعية مؤلفة من احرار العثمانيين وكانت الكتب التي طُبعت في مصر ونشرت من مؤلفات احمد رضا بك وناجي افندي قد احدثت حركة شديدة في الافكار واعدّتها لما يلقى عليها ثم جاء عدم اهتمام الحكومة الحميدية بما كان جاريًا في مكدونية ممهلاً للانقلاب

قال كنت في مكدونية اطارد العصاة كغيري من ضباط الجيش وذلك من سنة ١٣٢٠ الى سنة ١٣٢٤ وكانت اكثر المعارك تنتهي بفوزنا فنأتي بالجناة ومعهم قنابلهم واسلحتهم ثم

يصدر العفو عنهم ويخلي سبيلهم . وكانت نظارة الحربية لا تنجي من مخالفة العدل في الحقوق العسكرية فتهب الرتب والمناصب والرواتب للاصهار والجواسيس والمنافقين لا للمجتهدين المستحقين . فذلك وقلة الملابس وخبث الزاد وعدم اهتمام الحكومة بدفع الرواتب للجنود وطد في افكارهم فكر الثورة

وكانت جمعية الاتحاد والترقي العثمانية قد عمت وعمّت الناس في غضون ذلك ان تلك الاسواء ليست ناتجة من القواد والمفتشين والسر عسكر والصدر الاعظم بل من شكل الادارة فاستمالت اولي الضمائر الصادقة والمخلصين ولم تعد ترى حاجة الى الستر كما كانت عليه من قبل

ثم ذكر كيف درت الحكومة بالجمعية وناصبتها العدوان وكيف فازت الجمعية عليها اخيراً في حديث طويل مملوء بالعبر سداه ولحمته حوادث تاريخية يودّ كل عثماني الوقوف عليها لانها تبين له كيف زُرع غرس الحرية وكيف نما وترعرع وما اصابه من العواصف والزوابع وكيف صبر عليها الى ان اشتدت اصوله وفروعه

ولقد كان من حظ هذا الانقلاب المبارك أن كتب نيازي بك كل ما اتصل بعلمه عنه في يومياته ثم جمع منها ومن بعض المحررات الرسمية هذه الخواطر الحسان . وكان له النصيب الاوفر من الاعمال المجيدة التي قلبت الحكم الماضي والوسائل التي استخدمها لذلك ضعيفة في ذاتها اذا نظرنا اليها من وجه حربي فقط وكان في الامكان اخماد انفاسها في طرفة عين ولكن حكمته ومهارته وتفانيه في حب وطنه ودناءة خصومه وخستهم وفروغ صبر الناس على الحكم الحميدي كل ذلك حقّق الفوز له ولحفنة من الرجال البواسل الذين خرجوا معه

ومن امثلة المهارة التي ابداها في اعماله والاخلاص الذي يتخللها كلها ما كتب به الى جرجيس رئيس جمعية فلوسفا الالبانية حيث يقول « عزيزي جرجيس

اني لجأت الى البلقان في مئتين من الفدائيين مسلحين يتسابق موزر جاعلاً نصب عيني خلاص الوطن من الخطر الكبير الذي بات فيه وعازماً على فدائه بالروح . ولما كانت خطتك التي سنتبعها من اسرع الاشياء جلباً لنخطر على هذا الوطن المقدس كانت مطاردتي لك اكثر من سواك ولكني امد اليك الآن يدي فقد آن لنا ان نتحد فلنجتمع حيثما اردت وكيفما شئت ولنجتهد معاً في خلاص الوطن لان الخروف الذي ينفرد عن القطيع يخطفه الذئب »

ومن امثلتها استمالته بالبلغاريين المسجنين على تخليص الوطن بمنشور نشره عليهم كله حكمة وتودد وغيرة قال ولقد اثر هذا المنشور في البلغاريين تأثير المعجزة وزاده قدراً مخاطبة ضابط مثلي لهم مخاطبة الاخوان ودعوته اياهم الى الاتحاد بعد مابدد شملهم وكسر قوتهم اربعة

اعوام - واني لم استخدم قوتي في التشريع في ضمان الحق والحرية للجميع على اختلاف المذاهب والاجناس ولم اميز المسلمين عن غيرهم في انفاذ العدل الى غير ذلك مما يعلي شأن الجمعية ويزيد الثقة بها

ويظهر لنا ان لغة الكتاب التركية فصيحة لبلاغة معانيه وهذا مما لَبَّك حضرة مترجمه وهو من ابلغ الكتاب بالعربية فحرص على كثير من الفاظها العربية الاصل وتراكيبها البليغة بانتهج التركية فجاءت عربيته عويصة قليلة الوضوح والسلاسة ومع ذلك فلا بد لكل من يحب الحرية العثمانية من ان يطالع هذا الكتاب بالامعان - فانه ليس مجرد قصة تاريخية بل هو بحث اجتماعي في شؤون الدولة العثمانية وادوائها وطرق علاجها - هاك مثالاً على ذلك من بعض ما قاله جمعية الاتحاد والترقي في لائحتها التي قدمتها الى الدول

«انه ليس في مكدونية داء خاص بها ولا مسألة ناجمة عنه وليس فيها تعصب اسلامي - ونحن نقول قبل كل الناس ان سكان مقدونية ليسوا في الرقاء المطلوب وافكارنا متفقة من هذه الوجهة مع اوربا الآن اختلافنا هو في تعيين منشإ الضرر ولهذا نختلف في اتخاذ الوسائل الناجعة له - وسبب الضرر في كل الولايات التي تتألف منها المملكة العثمانية لا في مكدونية وحدها هو الاستبداد والظلم في اصول الحكومة الحاضرة والامر الذي آل بالبلاد الى هذه الحالة التي لا تطاق هو فقدان الحرية - والمرض المستولي على بلاد العرب او طرابلس الغرب هو عين المرض المستولي على مكدونية - فكل الاقوام المؤلفة من الترك والعرب والالبانيين والجركس والاكراد والارمن والفلاخ واليهود والعرب والروم والبلغار ممن يشملهم الاسم العثماني يكابدون تلك المشاق بعينها ويئنون تحت تلك الاثقال بعينها وفرق المذهب والجنس لا يختلف اعباء احد وليس بمكدونية ولا بغيرها من الولايات نوعان من الناس احدهما ممتاز والآخر مظلوم بل كلنا بلا استثناء مشتركون في الظلم وكلنا رازح تحت استبداد واحد

«فان كانت حالة مكدونيا تهمّ اوربا وان كانت اوربا تريد حقًّا ان تسعد المكدونيين فالذي يجب عليها ظاهر للعيان - اعينونا فعلاً على هدم الاستبداد الحاضر والخروج الى النور فيسعد العثمانيون عامة ويسعد معهم المكدونيون»

واكثر المشور على هذا النمط وقد اهتم الذين كتبوه بنفي تهمة التعصب الديني - ولا ندري لماذا يهتمّ الناس كثيرًا بنفي هذه التهمة مع اننا لا نرى اصحاب دين الا وهم متعصبون لدينهم ولا ضرر من التعصب الا اذا تطرّف الى المسائل العمومية كأن اتخذ ذريعة الى سلب حقوق الخير المدنية - اخبرنا رجل من دمشق ان الآراء اتفقت على انتخاب وجيه من وجهاء

المسيحيين منها لمجلس المبعوثان واجتمع المنتخبون عند اثنين من الكبراء احدهما عالم كبير فقال لهم العالم ان انتخابكم فلاناً لمجلس المبعوثان وهو مسيحي غير جائز شرعاً. فاجتمعوا عن انتخابه. فهذا هو التعصب الذميم لان صاحبه تذرّع بالدين لسلب الحقوق. ولا مشاحة ان هذا التعصب موجود في ادمغة كثيرين من المدعين خدمة الدين وهو آفة كبيرة من آفات المشرق وانكاره ليس من الصواب

وفي هذا المنشور كلام شديد على روسيا والسياسة الروسية نحب ان لا يكون اساسه متيناً وان تكون السياسة الروسية في بلاد الدولة العلية على غير ما وُصفت في هذا المنشور. وعسى جمعية الاتحاد والترقي ان تكون قد رأت الآن من دول اوربا كلهن ما جعلها تحسن الظن بمقاصدهن نحو الدولة العلية وتثق انهن لم يتعرضن لشؤون مكدونية الا مكرهات وان عند كلٍ منهن من المشاغل ما يكفيها ويشغلها عن غيرها من دول المشرق

ويقيننا ان الدول الاوربية تكون اول شاكرة لتاحيتنا تكفيها مؤونة الاهتمام بامورنا لانه لا ينالها من ذلك الا القلق والخسران. واكثر ما يشكو منه الوزراء الاوربيون اقلاق المبشرين لهم بشكاويهم. فلتثق الجمعية انه اذا جرى العدل في البلاد العثمانية او اذا بطلت شكوى الشاكين لم تعد الدول الاوربية تتعرض لنا الا كما يتعرض بعضها لبعض. وهذا الامر نعلمه يقيناً بالخبر والخبر. وما شكونا الحقيقية من مداخلة الاجانب بل مما كان في البلاد من سوء الادارة. ولقد اجاد صاحب الخواطر في ما كتب به الى مدير رسنه في هذا المعنى حيث قال «ان كل المصائب التي وقع فيها الوطن هي نتائج الاستبداد واحوال الاداة المستقلة ولن تنتهي هذه الاسواء ما لم تصر الحكومة شرعية ودستورية وما لم تتغير اصول الادارة من اساسها»

ويعجبنا انصاف المؤلف في اعطائه كل ذي حق حقه قال في كلامه عن قرية اسمها وجهان «انها ذات شأن عظيم لانها مأمن لعصابات البلغار بين فلما رأى اهلها حليمنا داخلهم الخوف فأقفلوا دكاكينهم وبيوتهم واختفوا فاستدعينا شيوخهم وامناهم بالشرف والذمة واخذنا معهم في البيع والشراء فاطمأنوا وزال خوفهم ووضعوا ايديهم على الانجيل وعاهدونا على ان يصدقوا للقصد العالي وان يسرعوا في انفاذ امرنا ومناصرتنا متى دعت الحاجة. ولما كان المساء واخذت شمس الاكوان تودع القرية بشعاعيها المتقائل وتستودعها صدور الظلمات اخذت الضمائر التي اظلمت بليل المخاوف تستنير بشمس العدل وجعلت النوامي المستنيرة باشعة الآمال والوجوه المستبشرة بأنوار البشر تشيعنا فيزيد ذلك جمال الطبيعة جمالاً. وبعد ان سرينا

ساعة ونصفاً قاربنا قرية رادويشتا فعادت طليعتنا التي كنا اتقدمناها اليها لتعدّ لنا اماكن النوم وقالت لنا ان سكان هذه القرية تقلدوا اسلحتهم واحتشدوا في ميدان الجامع غاضبين ومتأهبين لمقابلتنا بالعدوان وعبثاً حاولنا ان نبين لهؤلاء الناس الجهلاء المتعصبين مرادنا وان مقصدنا تأييد العدل »

وقد بذل نيازي ورجاله وسعهم في اقناع اهل هذه القرية بقبولهم عندهم تلك الليلة وكان يعرف كثيرين من شيوخهم ووجوههم فلم يتمكن من اقناعهم فاضطر ان يعود هو ورجاله ويبيتوا قرب المطاحن جياعاً عطاشاً قال «ولم تذق عيناي غمضاً طول ليلتي لما عراني من الغضب واليأس» . قابل ذلك بما ذكره عن اهل القرية الاولى وعن رهبان دير صاري صالشيق حيث قال « تقابلنا مع الرهبان فبالغوا في اكرام وفادتنا واظهروا من كرم الضيافة خير مثال وقد جرى بيننا هذا الحديث

انا — انكم تجعلوننا اسرى منكم بما تستقبلوننا به ولا تدعون لنا مجالاً لبيان مقصدنا . ان مقصدنا الأصلي تأسيس اخاء بين العناصر المختلفة التي في وطننا واحداث قوة تضرب على الاحوال التي نجربه وايجاد حكومة دستورية شرعية . والاساس هو تهيئة الاسباب لاستعادة الحال السعيدة التي كانت في سنة ١٢٩٤

رئيس الرهبان — ان شرف مقصدكم ظاهر من نهج حركاتكم . الناس كلهم راضون عن حسن اعمالكم وعدلكم وقد وثقنا نحن ايضاً من انا سنرى قريباً توفيقكم . سأجتهد ما استطعت في اعداد كل ما تحتاجون اليه . لقد صدرت الاوامر الواجبة من اجل الخبز واللبن انكم تعبون فاستريحوا »

ولا غرابة في ذلك فان المنشورات التي كان ينشرها نيازي كانت كلها تدعو الى اطمئنان المسجنين وثبت لهم ان الغرض انشاء حكومة دستورية تشترك فيها جميع العناصر المؤتلف منها الشعب العثماني على السواء . وكذلك الجمعية كانت تكتب في منشوراتها دائماً « ان يعمل الاهالي بغاية ما يستطاع من العدل والرأفة من غير فرق بين الجنس والمذهب »

ومن رأي نيازي ان هذه الثورة الفت لانها شملت جميع العناصر من غير استثناء . قال في خطبة خطبها بعد اعلان الدستور ما يأتي

« يا ابناء وطني — ارى اضطراراً ان اجمل البيان عن عدم التوفيق والنجاح في الثورات من نحو اثني عشرة سنة في الاناضول وفي الست السنوات الاخيرة في الروملي . ان ثورة مواطنينا الارمن في الاناضول ضد حكومتنا المستبدة لما لم تكن شاملة سائر عناصر الوطن بل خاصة بالارمن فقط وثورة مواطنينا البلغار بين اخيراً في الروملي كانت منحصرة في

العنصر البلغاري ... فاشتعلت الحكومة العناصر المخالفة بعضها ضد بعض فاحيطت مساعي الثائرين »

هذا وفي الكتاب صور كثيرة من صور الافراد والجماعات والاماكن منقولة عن صور شمسية مما كان يصورهُ بازي ورجالهُ تحقيقاً للحوادث وجذا لو طبعت في الترجمة العربية على ورق وحدها لا مع ملازم الكتاب لكي يجيء طبعها واضحاً . ولم نحاول تلخيص حوادث الكتاب في هذا التقريظ لاننا نود ان يقرأ كل احد الكتاب نفسهُ بالامعان الذي يستحقهُ فيرى كيف استطاعت حفنة من الرجال البواسل الصادقين ان يقلبوا حكماً ظالماً كانت تخشاهُ الالوف والملايين

الحرية في الاسلام

مسامرة لحضرة الشيخ محمد الخضر احد المدرسين في جامع الزيتونية الاعظم وفي المدرسة الصادقية القاها في نادي جمعية قدماء تلامذة المدرسة الصادقية في ١٧ ربيع الثاني سنة ١٣٢٤ وهو يومئذ بمدينة بنزرت . وقد جعل مدارها على حقيقة الحرية والشورى والمساواة والحرية في الاموال والحرية في الاعراض والحرية في الدماء والحرية في الدين والحرية في خطاب الامراء وآثار الاستبداد

وحدد الحرية بقولهِ هي ان تعيش الامة عيشة راضية تحت ظل ثابت من الامن على قرار مكين من الاطمئنان ومن لوازم ذلك ان يعيّن لكل واحد من افرادها حدلا يتجاوزهُ وتقرر لهُ حقوق لا تعوقهُ عن استيفائها يد غالبة . ثم فصّل ذلك تفصيلاً حسناً فقال « ومن كشف عن حقيقة الحرية ستار الاجمال اشرف على اربع خصال مندمجة في ضمنها احدها معرفة الانسان مالهُ وما عليهِ فان الشخص الذي يجهل حقوق الهيئة الاجتماعية ونواميسها لا يبرح في مضيق الحجر مقيد المواعد عن التصرف حسب ارادتهِ واختيارهِ حتى يستغني بها خبرة ويقتلها علماً اذ لا يأمن ان تطيش افعالهُ عن رسوم الحكمة والسداد فيقع في خطيئة تحدث في نظام تلك الهيئة علة وفساداً . ولا يخالط الضمائر من هذا ان الحرية مقصورة على علماء الامة العارفين بواجباتها اذ للامميين منها مخلص فسيح وهو باب الاستفتاء والاسترشاد قال تعالى (فاسألوا اهل الذكر ان كنتم لا تعلمون)

ثانيها شرف نفس يزكي علويتها و يطهر نواياها من قصد الاعتداء على ما ليس يحق لها فلا ترمي بهمتها الاّ في موضع تشير اليهِ العفة ببنانها

ثالثها اذعان يدخل به تحت نظر القوانين المقامة على قواعد الانصاف ويستنزله ريثما تحرر ذمته من المطالب التي توجه اليها باستحقاق

رابعها عزة جانب وشهامة خاطر يشق بها عصا الطاعة للباطل ويدمغ بها في قوة من يسوم عنقه بسوء الضيم والاضطهاد

ولا يقيم على ضيم يراد به الا الاذلان غير الحي والوتد

نستنتج من هذا البيان ان الاساس الذي ترفع عليه الحرية قواعدها ليس سوى التربية والتعليم فيتكل على الحكومة التي تنظر الى فضيلة الحرية بعين الاحترام ان تسعى جيدها في تهذيب اخلاق الامة وتنوير عقولهم بالتعليمات الصحيحة»

ذاهب بعد ذلك في تفصيل المشورة والمساواة ولا تدري ما يقول في المساواة بين الناس في حقوق الولاية هل يبقى على ما تقتضيه الحرية الشخصية من ان الناس احرار في ان يولوا عليهم من يشاؤون مهما كان دينه ومذهبه او يستثني فيها كما استثنى في الحرية الدينية حرية من ارتد بدعوته الى الاباية والتوبة فان رجع والا ضرب بالسيف على عنقه

اننا نعلم حرج الموقف الذي يقف فيه كل من يحاول التوفيق بين الاحكام السياسية وبين الاحكام الدينية ولهذا نصح دائماً لكل المشتغلين في هذا الموضوع ان لا يهتموا بهذا التوفيق لانهم لا يفيدون الدين ولا يفيدون السياسة وقد يضرونهما كليهما. ولقد حاول كثيرون من الاوربيين التوفيق بين اقوال التوراة واحكامها وبين القواعد السياسية والحقائق العلمية فقسروا واولوا وضيقوا ووسعوا وغيروا وبدلوا وقالوا اخيراً بترك الدين وحده والعلم وحده والسياسة وحدها الى ان تتفق كلها اتفاقاً صريحاً لا شبهة فيه لان الحق واحد لا يتنوع

«والمسامرة» من انفس ما رأيناه في موضوعها بالعربية وقد وصف صاحبها الحرية والاستبداد وصفاً شعرياً بديعاً قال واذا اضاءت على الامة شموس الحرية وضربت باشعتها في كل واد اتسعت آمالهم وكبرت همتهم وثربت في نفوسهم ملكة الاقتدار على الاعمال الجليلة ومن لوازمها اتساع دائرة المعارف بينهم فتتفتق القرائح فهماً وترتوي العقول علماً وتأخذ الانظار فسحة ترمي فيها الى غايات بعيدة فتصير دوائر الحكومة مشحونة برجال يعرفون وجوه مصالحها الحقيقية ولا يحرفون عن طرق سياستها العادلة

والحرية تؤسس في النفوس مبادىء العزة والشهامة فاذا نظمت الحكومة منهم جيشاً استماتوا تحت رايتها مدافعة ولا يرون القتل سبة اذا ما رآه اناكسو رؤوسهم تحت راية الاستبداد

ثم ان الحرية تعلم اللسان بياناً وتمد اليراعة بالبراعة فتزدحم الناس على طريق الادب الرفيع وتنور المجامع بفنون الفصاحة وآيات البلاغة هذا خطيب يدعو الى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة وذلك شاعر يستعين بأفكاره الخيالية في نصرة الحقيقة ويحرك العواطف ويستنهض الهمم لنشر الفضيلة وآخر كاتب وعلى صناعة الكتابة مدار سياسة الدولة

ولم تكن ينابيع الشعر في عهد الخلفاء الراشدين فاغرة افواهها بفن المديح والاطراء وانما ترشح بهم رشحاً وتسمح بهم سمحاً لا يضبهد من فضيلة الحرية قتيلاً وما انفلت وكاؤها وتدفقت بالمدائح المتغالية الا في الاعصر العريقة في الاستبداد

ولما وقر في صدر عمر بن عبد العزيز من تنظيم امر الخلافة على هيأته الاولى لم يواجه الشعراء بجفاوة وترحاب وقال ما لي وللشعراء وقال مرة اني عن الشعر لفي شغل . انتجعه جرير بابيات فأذن له بانشادها وقال له اتق الله يا جرير ولا تقل الا حقاً وعندما استوفاها واصله بشيء من حر ماله فخرج جرير وهو يقول خرجت من عند امير يعطي الفقراء ويمنع الشعراء واني عنه لراض ثم انشد يقول

رأيت رقى الشيطان لا تستفزه وقد كان شيطاني من الجن راقيا

ومن مآثر الاستعباد ما تتجشأ به اللها وتسيل به الاقلام من عديد الكلمات التي يفتضح لك من طلاوتها انها صدرت من دواخل قلب استشعر ذلة وتدثر صغاراً نحو (مقبل اعتابكم) (المتشرف بخدمتكم) (عبد نعمتكم) ولا اخال احداً يصغي الى قول احد كبراء الشعراء

وما انا الا عبد نعمتك التي نسبت اليها دون اهلي ومعشري

الا ويمثل في مرآة فكره شخصاً ضئيلاً يحمل في صدره قلباً يوشك ان ينوء بما فيه من الطمع والمسكنة

ومن سوء عاقبة الخضوع في المقال ان يوسم الرجل بلقب وضيع يتخذه له الناس من بعض اقوال له افرغ فيها كشبة من التذلل وبذل الهمة كما سموا رجلاً بلعم (عائد الكلب) لقوله

اني مرضت فلم يعدني واحد منكم ويمرض كلبكم فأعود

ولا نجهل ان بعض من سلك هذا المسلك من التملق والمديح اتخذه سلماً ليظفر بحق ثابت ولكنه لا يناقي الغرض الذي نرمي اليه من ان الحقوق في دولة الحرية تؤخذ بصفة الاستحقاق وفي دولة الاستبداد لا تطلب الا بصفة الاستعطاف . انتهى بلفظه الرشيق ومعناه الانيق

ولقد احسن حضرة منشيء هذه الرسالة بطبعها ونشرها فهي حرية بان تقرأ وتحفظ ويسترشد بها